فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء

ليس غرضي في الكلام عن فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء ان أحيط بفلسفته الخلقية كلها ، فان أمراً كهذا يحتاج الى وقت واسع وبحث طويل . وانما أريد أن أبين ما هو المثل الأعلى للخير في نظر أبي العلاء ، وما هي القواعد الخلقية اللازمة عنه .

والبحث في فكرة الخير هام جداً ، لأن أبا العلاء لم يكن فيلسوفاً مدرسياً ، ولا صاحب مذهب منظم كأرسطو وابن سينا . وإنما كان فيلسوفاً خلقياً قبل كل شيء . ومن البحث في فكرة الخير يستطيع الناظر أن يطل على الفلسفة الخلقية كلها .

لم يكن أبو العلاء حسن الرأي في الدنيا والناس . ومن الاطالة أن نستدل على ذلك الآن بشعره ونثره . فقد ذم الدنيا كما ذمها ابو العتاهية ، واتهم الانسان بالظلم كما اتهمه به المتنبي ، ونفض يده من اصلاح الانسان فلم يرج له شفاء من أدوائه ، ولا نجاة من أوصابه وآلامه ، بل زعم أن جبلته فاسدة وان الشر في طبعه وانه غادر يميل الى الظلم .

وجبلة الناس الفساد فضل من يسمو بحكمته الى تهذيبها

من وسخ صاغ الفتى ربه فلا يقولن توسخت

وأكثر الذين بحثوا في فلسفة ابي العلاء الخلقية لم يدرسوا إلا هذه الناحية السوداء من مبادئه . فأشاروا الى تشاؤمه ، وريبه ، وسخريته ، ونقده للحياة الاجتماعية والدينية ، وشكه في إصلاح الانسان ، وأهملوا ايمانه بالخير ، وألحقوه بالفلاسفة المتشائمين كشوبنهاور وغيره . وأريد الآن أن أبين أن تشاؤم أبي العلاء انما هو تشاؤم نسبي لا ينافي الإيمان بالخير . وفي اللزوميات والفصول والغايات أدلة كثيرة على تطلع أبي العلاء الى مثل أعلى شبيه بالمثل العليا الخلقية التي تطلع اليها أصحاب الأحلام من الشعراء والفلاسفة والمصلحين . فما هو الخير في نظر ابي العلاء ؟ ـ

من الصعب لا بل من العبث ان نبحث عن تعريف علمي واضح للخير في شعر أبي العلاء . لان اللزوميات ليست كتاباً فلسفياً مشتملاً على تعريفات علمية واضحة . وليس من شأن الشعراء ان يضعوا التعريفات وان يبنوا عليها المباديء والغايات. على أن أبا العلاء قد ذكر لنا الخير في كثير من أشعاره ، فلم يكتف بالتلميح به بل اثبته وعدد لنا كثيراً من صفاته. ولنذكر الآن بعض هذه الصفات :

١ — لنبين اولاً ان الخير محبب الى النفس . فكل عاقل يطلبه ويريد الحصول عليه ، لانه يجد فيه لذته وسعادته . نعم ان الانسان قد يعجز عن الخير لصعوبة الطريق المؤدية اليه فطريق الني واسعة ، وطريق الخير كما يقول ابو العلاء ضيقة كسم الخياط . والعدل صعب والمرء يعييه قود النفس للخير ، مع انه « يقود العسكر اللجب » . وقد يعجز الانسان عن الخير لكسله الطبيعي وفساد جبلته ، وغش طبيعته ، ولكنه اذا ماتجرد عن غرائزه ، وابتعد عن هواه استسهل فعل الخير ، ورغب فيه واحبه .

والخير محبوب ولكنه يعجز عنه الحي أو يكسل

٢ — على أن اللذة التي يجدها الانسان في الخير ليست غاية الفعل ، ولا هي مبدأ من مبادئه لانها تنقلب الى الم . فقد تولد لذة ساعة واحدة شقاء حياة طويلة ، وقد تولد المرض والفضيحة والعار . والذين يرسلون نفوسهم في اللذات لايعرفون الراحة والهناء انهم كالانعام ، لابل اضل سبيلاً . لان اللذة كما يقول أبو العلاء لاتخلد صعلوكاً ولا ملكاً . ولا تدوم على حال واحدة ، بل سرعان ماتنقلب الى ضجر وملل .

اذا فزعنا فان الامن غايتنا وان امنا فما نخلو من الفزع
وشيمة الانس ممزوج بها ملل فما ندوم على صبر ولا جزع

فلا خير اذن في لذة نتيجتها الملل ، ولا قيمة لمسرة نصيبها الزوال ، ولا فائدة في امن لايخلو من الفزع .

جاءتك لذة ساعة فأخذتها بالعار لم تحفل سواد العار
ان يرسل النفس في اللذات صاحبها فما يخلدن صعلوكاً ولا ملكاً

٣ — وكما ان اللذة ليست غاية الفعل ، فكذلك المنفعة ليست غاية الخير ، بل الفضيلة اسمى من ان تنحل الى تجارة رابحة . فينبغي للعاقل أن ينزه الخير عن نتائجه ، وان لايؤمل الربح منه كأنه تاجر . نعم قد يجر الينا الخير نفعاً ، فنفعله كما يقول أبو العلاء لأن له ثمرة لذت في المطعم ، وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت في المنظر والمتوسم ، وجاوزت الحد في العظم ، ونفعله لحسنه في المسامع ، ونفعله لنكسب به ثواباً عند الله .

فافعل الخير وأمل غبّه فهو الذخر اذا الله حشر

ولكن المنفعة والخير امران مختلفان تماماً . وانك لتجد المنفعة في هذه الدنيا قد وفرت للاشرار اكثر مما وفرت لاولى الفضل ، بل اولو الفضل كما يقول أبو العلاء غرباء في اوطانهم ، غرباء في بني جنسهم . وكثيراً ماتولدت المنفعة من الشر .

ولا لون للماء فيما يقال ولكن تلونه بالأواني
وفي كل شر دعته الخطوب شواسع منفعة أو دواني
وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام

فلو كان معنى الخير مطابقاً لمعنى المنفعة لما ولد الخير الا نفعاً ، ولما ولد الشر الا مضرة . فالخير ليس اذن في اللذة ولا هو في المنفعة بل هو مستقل عنهما معاً .

٤ — لذلك صرح أبو العلاء بان الخير يجب ان يطلب لذاته لالنفعه . فالاخلاق في نظره ليست في مداراة الناس ، ولا هي في طلب المنافع واللذات ، بل هي ذاتية مثالية . والعاقل انما يفعل الخير لانه خير وجميل ، لا لأنه يرجو عليه ثواباً عند الله والناس ، أو يخشى من مخالفته عقاباً . « قد تقول لك النفس انها في اذى وقذى ، فاذا كنت محباً للخير قلت لها يانفس صبراً وتسليما ، ان ماتفعلينه هو الواجب » . فابو العلاء لم يكتف بتنزيه الخير عن اللذة والمنفعة حتى نزهه عن العقاب والثواب ، وجعله خالصاً لربه ، وزجر السنة الناس عن مديحه . وفي ذلك يقول :

كن صاحب الخير تنويه وتفعله مع الانام على ان لايدينوكا
فلتفعل النفس الجميل لانه خير واحسن لالأجل ثوابها
توخي جميلاً وافعليه لحسنه ولا تحكمي أن المليك به يجزي
فنزه جميلاً جئته من جزاية تؤمل او ربح كانك تاجر

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم على صلاة يوم اصبح هالكا

فالخير جميل ، والظلم قبيح ، وأبو العلاء يفضل عذاب النار مع الخير ، على نعيم الخلد مع الظلم :

وما سرني اني اصبت معاشراً بظلم ، واني في النعيم مخلد

ومثل هذه المعاني كثير في اللزوميات والفصول والغايات لم نشأ ان نطيل في الاستدلال بها . وهي كلها تدل على أن أبا العلاء قد آمن بالخير وطلبه لذاته لالنفعه .

٥ — ومن اعظم صفات الخير قيمة صفته العقلية ، لأن العقل في نظر أبي العلاء هو معيار كل معرفة صحيحة ، وميزان كل منهج قويم . فالخير لايكون خيراً حقيقياً الا اذا كان خاضعاً لحكم العقل . ومنهج الاخلاق لايكون واضحاً الا اذا اضيء بنور الروية والفكر . لم يوصف العقل باحسن مما وصفه ، أبو العلاء في لزومياته وفصوله وغاياته . فقد جعله اماماً ومشيراً وهاديا الى الرشاد ونبياً . قال في الفصول والغايات : « العقل نبيء ، والخاطر خبيء ، والنظر بريء ، ونور الله لهذه الثلاثة معين » . وقال في اللزوميات :

يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العق ل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرح مة عند المسير والارساء

وقال :

وينفر عقلي مغضباً ان تركته سدى واتبعت الشافعي ومالكا

وقال :

فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادي

وهذا يدل على ان الخير كل الخير هو في اتباع العقل لان العقل مشير امين . فاذا ما اطاعه الانسان جلب الى نفسه الرحمة وابتعد عن القسوة ، وتحرر من سيطرة التقاليد العمياء والعادات المظلمة وحكم النظر في الاخبار والروايات . فان الغائص كما يقول أبو العلاء لا يتناول درة الحق الا بالروية والفكر . واذا قوي عقل المرء استطاع ان يهوى الدنيا ولا تهويه ، اما اذا قل عقله فان الدنيا تغويه وتغريه بزخارفها واكاذيبها . فليأخذ الانسان اذن في سبيل العقل ليهدى بهديه . انه اذا فعل ذلك ادرك ان هناك عادات قبيحة ومعاملات سيئة ،

وقوانين وشرائع بالية تحتاج الى اصلاح وتبديل . ولو اتبع الانسان عقله في هذه الدنيا لما لقي فيها الا الخير .

وها هنا مسألة لابد من الاشارة اليها ، وهي ان أبا العلاء لم يكتف ببيان أثر العقل في الخير ، بل اشار ايضاً الى ان الادراك العقلي ضروري للمسؤولية الخلقية والشعور بالالم . فما قاله في الفصول والغايات : « ان الله ، وله علو المكان ، قد جعل الشر غريزة في الحيوان ، فابعدهم من الشرور اقل حظاً من المعقول ، الا ترى الحجر مر به العاثر فادمى الابهام . لاذنب للحجر ، ولكن للواضع والعاثرين » وقال ايضاً : « داء المسرة العقل ، وداء الحزن الجهل » وهذا يدل على ان ازدياد القوة المدركة عند الحيوان يقربه من الشر ، ويزيد شعوره بالالم . فالعقل يولد الحزن والالم والشقاء ، والجهل يولد القناعة والرضى . وابو العلاء يعتقد كشوبنهاور ان للشعور بالالم درجات : فالجماد لايحس بالالم ، والنبات يكاد يكون عديم الحس . اما الحيوان فان درجات شعوره بالالم متفاوتة . فكلما كان ارقى كان شعوره بالالم اشد . وكلما كان ادنى كان شعوره بالالم اخف . واما الانسان فهو اكثر الحيوانات شعوراً بالالم لنمو مداركه العقلية . ولو فرضنا ان هناك عالماً آخر فوق عالم الانسان له نصيب من العقول ، ونمطه في الوجود شبيه بالنمط الذي نحن فيه ، لكان شعوره بالالم أشد من شعور الانسان به . فكأن العقل عن النعيم صاد ، وللسعادة مضاد . وكأن العلم سبب من اسباب الشقاء .

اذا علمي الاشياء جر مضرة الي فان الجهل أن اطلب العلما

فاذا كان العلم يشقينا ، فخير لنا ان لانعلم . ولنحن حقيقون بأن ننعم في الجهل ، وأن نفضل الظلمات على النور .

فهم الناس كالجهول وما يظفر إلا بالحسرة الفهماء

اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالحسر للعلماء

فالجهل مع الفضيلة خير من العلم مع الرذيلة . والذي يقيم الصلاة ويروم بها كيداً أبعد عن الله كما يقول ابو العلاء من تاركها عمداً .

فأنت ترى أن أبا العلاء قد جعل العقل من جهة ميزان الخير ، وجعله من جهة بانية علة الشقاء والضير . وليس في هاتين الجهتين أي تناقض ، لأن العقل

لا يكون علة الشر إلا إذا كان ناقصاً ، فيكون له في هذه الحالة جهتان إحداهما جهة العلو ، وهى جهة الشعور بالكمال ، والأخرى جهة السفل ، وهي جهة الشعور بالنقص . وكلما غلبت الجهة الثانيـة الجهة الأولى كان الشعور بالألم أشد وأقوى . فاذا استطاع الانسان أن يتغلب على غريزته ، وأن ينزه عقله من العاطفة والهوى لم يشعر إلا بالكمال ، ولم يدرك إلا الخير . وإذا غلب هواه قواه ، وطغت غريزته على عقله عاش في عذاب دائم وضلال مبين .

ولو كان عقل النفس في الجسم كاملاً لما أضمرت فيما يلم به غماً

والنفس لا تشعر بهذا الشقاء الا لوجودها في الجسم . فقد كانت قبـل اتصالها بالجسم سعيدة هادئة . فلما هبطت اليه أدركهـا العذاب ، كما يقول أفلاطون وابن سينا ، ونحن لا نعلم لماذا هبطت الروح إلى الجسم ، ولماذا أراد الله لها هذا الشقاء ، ولماذا أمرها أن تكسب الخير عن طريق العقل . فما هي إرادة الله ، وما هي عنايته ، وما هي صفاته ، إن العقل لا يستطيع أن يحيط بذلك كله ، فهو لا يعرف حقيقة الله ، ولا قدم العالم ، لأن نطاقه في أمور ما بعـد الطبيعة محدود . دع عنك ان قيود الجسم والغريزة تصده عن إدراك الحق ، فلا بد له إذن من الاستعانة بنور الله .

٦ — وإذا استقل العقل عن الغريزة ، وتجرد من العواطف والأهواء ، أدرك المثل الأعلى وتطلع الى الحياة الروحية المثالية . فالعاقل لا يطلب الخير لنفسه فقط ، بل يطلبه لنفسه ولبني جنسه أيضاً . وأبو العلاء لا يريد أن ينفرد وحده بالخير ، بل يريد أن يعم الخير جميع الناس . ولو كانت له جنة الخلد لما أحب بها انفراداً . وفي ذلك يقول :

ولو أني حبيت الخلد فرداً لمـا أحببت بالخلد انفرادا
فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ولا فرق في نظره بين حر وعبد ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين عربي وأعجمي ، ولا بين هاشمي وغير هاشمي ، بل الناس كلهم سواء لأنهم متساوون في اصلهم ، متساوون في حقوقهم وواجباتهم لا فضل لواحد منهم على الآخر إلا بالتقوى .

فان الناس كلهم سواء وإن ذكت الحروب مضرمات

٧ — فأنت ترى أن مذهب أبي العلاء في الخير قريب من مذهب الرواقيين ، لأنه قد مدح الجهد والمشقة ، ودعا إلى اتباع العقل ، وهجر اللذات ، ونادى بالعدل والمساواة والرحمة . وهو قريب أيضاً من مذهب شوبنهاور ، لأن الرحمة عنده هي الحب ، لا بل هي مبدأ الاحسان والعطف على الانسان والحيوان . وربما كان شعوره بالرحمة أحد مظاهر تشاؤمه ، لأنه كما قدمنا قد حكم على الناس بالفساد ، وذمهم لتخبطهم في دياجير الظلام ، ولكنه في الوقت نفسه حنا عليهم حنو الأم على رضيعها ، فأراد إنقاذهم مما هم فيه من الجهل والظلم والشقاء . وإنك لتجد وراء نقده الاجتماعي ووراء هزئه وسخريته شعوراً عميقاً بالحب والحنان . وتجد قسوته على نفسه أشد من شعوره بالعطف على غيره . ولكم تمنى أن يشعر الانسان بالرحمة التي يشعر بها هو نفسه ، وأن يسود العدل بين الناس ، وأن لا يقابل الشر بالشر . ومن أجل هذا الشعور بالرحمة رام الدفاع عن الحيوان ، وأراد حماية الضعفاء والمرضى والمساكين والشيوخ والأطفال . فهو إذن رسول الإخاء وعدو الظلم وبطل المساواة والعدل . ألا ترى اليه كيف يطلب الى المسلم والصابيء والهادي أن يرحموا المسكين ، وأن يصيدوا الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . إن الأمراء لا يسوسون الرعية بالعقل ، بل يعتدون على الأفراد ويسومونهم أنواع العذاب ، ويحدثون الفوضى في سبيل مطامعهم . والقضاة والعلماء ليسوا أحسن حالاً من الأمراء ، لأنهم يستخفون بقضايا الناس ، ويستجيزون الجور والفهر ، ويقبلون شهادة الزور والرشوة . فهم أشبه بالتجار الظالمين منهم بالعلماء العاملين . لا يصلح الناس إلا سياسة عقلية مبنية على الرحمة والعدل والمساواة . ولو صلح الحكام لما احتدمت نار الحرب بينهم ؛ ولوفروا على الناس كثيراً من البؤس والشقاء . فأبو العلاء يكره الحرب ، ويرجو أن يسود السلام في العالم ، وان يحل الوئام محل الخصام ، والحب محل البغضاء ، وان لا يشهر رجل على رجل سيفاً .

وفي ذلك يقول :

فلا تشهرن سيفاً لتطلب دولة فأفضل ما نلت اليسير المروج

ويقول :

فان ترشدوا لاتخضبوا السيف من دم ولا تلزموا الأمیال سبر الجرائح

ويقول : « يارب العب ، ان عبادك لفي تعب ، الام الاسنة على الرماح والاعنة في اعناق الخيل ورحائلها فوق الاثياج » .

فالانسان في نظره اخو الانسان احب ام كره . ومن الظلم ان يسلم الناس امرهم للغريزة وان تلعب بهم المقادير ، وان يسوقهم الدهر الى هذا الشقاء .

٨ — وهذه الاخلاق التي نادى بها أبو العلاء ليست سلبية ، لانه لم يكتف بالامتناع عن الشر ، بل دعا الى فعل الخير دعوة ايجابية بدون قيد ولا شرط . فهو من جهة يقول : لاتؤذ بلسانك بشراً ، ولا تحن من خانك ، ولا تضر الجار اذا لم تنفعه ، ولا تهزأ باحد ، ولا تؤازر الظالم ، ولا تجالس المغتاب ، ويقول من جهة ثانية : صد افعال الخير ، وان استطعت ظالماً فاردعه ، واكرم صاحبك ولا تخدعه ، واطعم سائلك اطيب طعاميك ، واكس العاري اجد ثوبيك ، وامسح دموع الباكية بارفق كفيك ، وافعل الخير بجذل ، وكن دون المحارم اخا عذاب .

ويقول ايضاً :

لاتسدين قبيحاً ان همت به وافعل جميلاً فان الخير يغتنم

فان قدرت فلا تفعل سوى حسن بين الانام وجانب كل ما قبحا

٩ — وهذا يدل على ان فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء مفعمة بالشعور الديني ، ولا غرو في ذلك فابو العلاء قد نشأ في بيئة دينية ، فكانت حياته مثلاً اعلى يقتدى به في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي لزومياته ابيات كثيرة يدعو بها الى الصيام والصلاة والزكاة . فالعقل عنده ، وان كان نبياً ، خاضع للنور الالهي . ولولا غريزته الوحشية ، ومغالاته في التوحيد ، ورغبته في التوحيد ، وضعف جسمه وفقد بصره لما انتقد الحج ولا ذم المرأة ولا اعرض عن الزواج والنسل . ان ارادة النسل عنده شبيهة بارادة الحياة التي اشار اليها شوبنهاور . انها لاتنافي غريزته الوحشية فحسب ، بل تؤدي الى زيادة كمية الشر والالم في العالم . ومهما يكن من امر فان الخير في نظر أبي العلاء عقلي وديني معاً . ولا فرق عنده بين الدين والاخلاق .

الدين إنصافك الأقوام كلهم واي دين لآبي الحق إن وجبا

١٠ — ويظهر أن للخير في فلسفة أبي العلاء درجات ومراتب ، كالخير الخاص بالحيوان ، والخير الخاص بالانسان ، والخير الخاص بالملائكة ، والخير الأعلى هو الله ، فاذا فعل الانسان خيراً ارتفع إلى عالم الملائكة ، وإذا فعل شراً هبط إلى درجة الحيوان .

ثلاث مراتب ملك رفيع وإنسان وجيل غير أنس
فان فعل الفتى خيراً تعالى الى قنس الملائك خير قنس
وإن خفضته همته تهاوى إلى جنس البهائم شر جنس

والشر لا ينسب إلى الله أبداً ، بل ينسب إلى الدهر والمادة .

كذب الذي نسب القبيح إلى الذي خلق الأنام وخط في برسامه

لا أزعم الصفو مازجاً كدراً بل مزعمي ان كله كدر

كأن الدهر بحر نحن فيه على خطر كركاب السفين

أعجم قد بين الرزايا وجعل الشر ترجمانه

فالإله خير وكمال ، والعالم شر ونقص . ولولا تيار الزمان الذي عكر صفو الوجود لما تولد الشر ، ولا خوف على مصير الانسان لأنه يستطيع أن يتغلب على الشر باتباعه العقل وإيمانه بالله وثقته بعدله وكماله . والدهر لا عقل له ، أما الله فهو كما قالت الفلاسفة عقل محض ، ومن اتبع عقله فقد تشبه بالله .

١١ — تلك هي صفات الخير في فلسفة أبي العلاء . فما هي القواعد الخلقية التي تلزم عنه؟

لا أريد الآن أن أذكر جميع القواعد التي اشتملت عليها فلسفة أبي العلاء الخلقية ، وإنما أريد أن أنبه إلى أن مثله الأعلى الخلق قد جره إلى العزلة والتقشف والمحبة والرحمة والتسامح والسلام .

فالتقشف يقضي باتباع العقل وإماتة الشهوات ، والاعراض عن اللذات ، والقسوة على النفس ، ومجاهدتها ، وقطع عقباتها الغريزية ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، وكفها عن الهوى .

والعزلة تقضي بقطع القلب عن الدنيا ، والتجافي عن دار الغرور ، والاعراض عن الجاه والمال والزواج والنسل ، والهرب من الشواغل والعلائق .

والرحمة تقضي بالتسامح والحب والسلام والعطف على الانسان والحيوان .

١٢ — فهذه الاخلاق كما ترى ، شبيهة باخلاق الرواقيّين ، لا بل باخلاق الزهاد والمتصوفين فهي تدل على ان تشاؤم أبي العلاء لم يكن تشاؤماً مطلقاً ، بل كان تشاؤماً نسبياً لا ينافي الايمان بالخير ولو كان تشاؤمه مطلقاً لما عزى نفسه بالايمان ، ولا تمسك باهداب العقل ، ولا تطلع الى المثل الاعلى . واصحاب التشاؤم المطلق يعتقدون ان حقيقة الوجود شر ، وان اللاوجود خير من الوجود ، اما اصحاب التشاؤم النسبي ، فيعتقدون ان الخير موجود في الدنيا مع الشر ، وانه في وسع الانسان ان يتغلب بارادته العاقلة على الظلمات . فابو العلاء لا يرى ان حقيقة الوجود شر مطلق . ولو اعتقد ذلك لنسب الشر الى الله ، ولما آمن بالله حكيم قادر ، خير عادل ، يجزي المحسن ويجازي المسيء . ولما اثبت الخير في الدنيا الى جانب الشر . وهو يقول في ذلك :

جهلنا ولكن للخلائق صانع اقربه فسل من القوم او شهم
ويعلم كل ان للخير موضعاً وفضلاً على انباته اجمع الدهم

ويقول : « غفرانك ربنا القديم ، خلقت الخير الى جنب الضير » .

ويقول :

خير وشر وليل بعده وضح والناس في الدهر مثل الدهر قسمان

ويقول :

والشر مشتهر المكان معرف والخير يلمح من وراء خمار

فوجود الله المسيطر على الدهر ، والنور المحيط بالظلمات ، والعقل الهادي إلى الرشاد ، كل ذلك يدعونا إلى الاعتقاد ان الله سينقذ الانسان من براثن الدهر ، وسيرفعه إلى المثل الأعلى . فأبو العلاء متشائم في الدنيا متفائل في الآخرة . وإذا كان قد بكى لبكاء الناس ، وحنا على الحيوان ورثى لحال البائس المسكين ، فما ذلك إلا لأنه تطلع إلى المثل الأعلى ، ورغب في حياة مثالية

لا يشوبها نقص ، ولا يعكر صفوها ألم . ومن الخطأ تشبيهه بشوبنهاور ، لأن الارادة في نظر شوبنهاور إنما هي عمياء هوجاء . سيان عندها الخير والشر . أما الله في نظر المعري ، فلا يصدر عنه إلا الخير ، ولا يريد لعباده إلا الرحمة والعدل . وهذا الايمان بالله هو كما يقول أبو العلاء خير الذخر في كل شدة « والخير عند ربنا لا يضيع » فليرد الإنسان إليه أمره ، وليطهر مهجته بخوفه ، وهذا يدل على أن أبا العلاء لا يختلف عن غيره من أصحاب الأحلام ، كأفلاطون والفارابي وغيرهما ، الذين حلموا بمدينة فاضلة لا تنبت أرضها إلا الرحمة والعدل ، فهو بهذا المعنى شاعر المثل الأعلى ، ورسول الكمال والخير .

جميل صليبا